قضايا المجتمع في شعر حافظ إبراهيم

*الدكتور حافظ محمد بادشاه

ABSTRACT:

The Nile poet Hafiz Ibrahim (1872-1932) is considered to be one of the most important poets of the Egyptians in the modern age.

He is contemporary of the renowned poet Ahmed Shawqi. A number of comparative studies have been jointly carried out by them. While Shawqi has been titled the 'Leader of the Poets', Hafiz has received the title of the 'Poet of Nile and Poet of People'.

Hafiz always stood by his people and never left them behind. He always remained in the forefront, screaming in the face of Englishmen, along with other leaders and front-runners of his people. Hafiz completely grasped the problems of the Egyptian society and presented these issues in an excellent manner in his poetry.

As we know, in every society there are certain issues which become very important for the community. Hafiz Ibrahim's generation has dealt with some of these important social problems. At the top of these issues are: National unity and religious tolerance; Development of education; and Emancipation (Women's liberty & freedom).

In this research paper I will talk about these three issues in detail and will show how Hafiz Ibrahim contributed in handling these sensitive

issues. I have divided this paper into four sections:

First Topic gives brief introduction of Hafiz Ibrahim

Second Topic relates to national unity & religious tolerance

Third Topic elaborates the issue of development of education

Fourth Topic throws light on the issue of emancipation.

* الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد

تألق نجم شاعر النيل حافظ إبراهيم وسط كوكبه من أعلام الأدب في عصره، نال من الشهرة وذيوع الصيت ما عوّضه عما لقي في حياته من عنت، ثم رحل مخلّفا وراءه سيرةً مليئة بالمفارقات والطرائف لا تقل شهرة عما خلّف من شعر.

وصار حافظ إبراهيم شاعر النيل على رقّة حاله قسيما في الشهرة لأمير الشعراء، يلقى الاهتمام في أندية الأدب، والترحيب من ذوي الجاه وأصحاب السلطان. وكان استمرار شهرته دليلا على أن إبداعه يحوي الكثير من عناصر التفوق.

لقد اشتهر حافظ بشعره الاجتماعي، لأنه كان متواجدًا بين الناس يرى أحوالهم فيكثر الحديث عنها..

وكما نعرف أن لكل مجتمع قضاياه التي تستحوذ على اهتمام الناس فيه، وقد انشغل جيل حافظ إبراهيم بعدد من القضايا الاجتماعية الهامة، كان على رأسها: قضية الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط، وقضية تطوير التعليم، ثم قضية تحرير المرأة، وكانت كل قضية تستأثر فترة من الزمن، باهتمام المفكرين والأدباء وولاة الأمر، ثم تختفي أو تهدأ، لتظهر أخرى تحل محلّها وتشد الناس إليها. كما كان لكل قضية جوانبها الحسّاسة التي تتطلب فيمن يتصدى لها رفقا وكياسة.

وفي هذا البحث الموجز أتحدث عن تلك القضايا الثلاثة بالتفصيل وأبين كيف ساهم حافظ إبراهيم في تقديم هذه القضايا. وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة مباحث وهي:

المبحث الأول: التعريف بشاعر النيل حافظ إبراهيم

المبحث الثاني: قضية الوحدة الوطنية والتسامح الديني

المبحث الثالث: قضية تطوير التعليم

المبحث الرابع: قضية تحرير المرأة

المبحث الأول التعريف بشاعر النيل حافظ إبراهيم

اسمه

هو محمد حافظ بن إبراهيم ولد في محافظة أسيوط في فبراير عام 1872، وتوفي في 21 من يونيو عام 1932م[1] وهو شاعر مصري ذائع الصيت. عاصر أحمد شوقي ولقب بشاعر النيل وبشاعر الشعب.

حياته

ولد حافظ إبراهيم على متن سفينة كانت راسية على النيل أمام ديروط وهي قرية بمحافظة أسيوط من أب مصري وأم تركية. توفي والده وهو في الرابعة من عمره. أتت به أمه قبل وفاتها إلى القاهرة حيث نشأ بها يتيما تحت كفالة خاله الذي كان ضيق الرزق حيث كان يعمل مهندسا في مصلحة التنظيم. ثم انتقل خاله إلى مدينة طنطا وهنالك أخذ حافظ يدرس في الكتاتيب. أحس حافظ إبراهيم بضيق خاله به مما أثر في نفسه، فرحل عنه.[2]

بعد أن خرج حافظ إبراهيم من عند خاله يتجول في طرقات مدينة طنطا حتى انتهى به الأمر إلى مكتب المحام محمد أبو شادي، أحد زعماء ثورة 1919، وهناك اطلع على كتب الأدب وأعجب بالشاعر محمود سامي البارودي. وبعد أن عمل بالمحاماة لفترة من الزمن، التحق حافظ إبراهيم بالمدرسة الحربية في عام 1888 م وتخرج منها في عام 1891 م ضابط برتبة ملازم ثان في الجيش المصري. وقد أصبح حافظ ضابطاً بوزارة الدفاع، ولم تمض على تعيينه سنوات ثلاث حتى يُرقّي إلى رتبة ملازم أول في 1893/8/1م وفي عام 1896 م أرسل إلى السودان مع الحملة المصرية إلا أن الحياة لم تطب له هنالك، فثار مع بعض الضباط. نتيجة لذلك، أحيل حافظ إلى الاستيداع بمرتب ضئيل.[3]

شخصيته

كان حافظ إبراهيم إحدى عجائب زمانه، ليس فقط في جزالة شعره بل في قوة ذاكرته التي قاومت السنين ولم يصبها الوهن والضعف على مر 60 سنة هي عمر حافظ إبراهيم، فإنها ولا عجب اتسعت لآلاف الآلاف من القصائد العربية القديمة والحديثة ومئات المطالعات والكتب وكان باستطاعته – بشهادة أصدقائه – أن يقرأ كتابا أو ديوان شعر كامل في عده دقائق وبقراءة سريعة ثم بعد ذلك يتمثل ببعض فقرات هذا الكتاب أو أبيات ذاك الديوان. وروى عنه بعض أصدقائه أنه كان يسمع قارئ القرآن في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو مريم أو طه فيحفظ ما يقوله ويؤديه كما سمعه بالرواية التي سمع القارئ يقرأ بها.

شعره

يقترن اسم هذا الشاعر باسم أحمد شوقي، فقد عاشا في فترة واحدة، وكثير ما قامت المقارنات بينهما، ولقِّب حافظ بشاعر النيل بعد أن لقب شوقي بأمير الشعراء.

يعتبر شعره سجل الأحداث، إنما يسجلها بدماء قلبه وأجزاء روحه ويصوغ (يبتكر) منها أدبا قيما يحث النفوس ويدفعها إلى النهضة، سواء أضحك في شعره أم بكى وأمل أم يئس، فقد كان يتربص كل حادث هام يعرض فيخلق منه موضوعا لشعره ويملؤه بما يجيش في صدره.

نظم حافظ أكثر قصائده في أغراض الوطنية، ويعد من طليعة (مقدمة) الشعراء الذين جاءوا في أعقاب الفترة المظلمة وأسهموا في إحياء الشعر العربي.

قام حافظ مع شعبه ولا يتخلف عن الركب فهو دائماً في مقدمة الصفوف يصرخ في وجه الانجليز مع زعماء الشعب وقادته وقد شعر في أعماقه أنه لا بد للأمة من أن تسلخ بالخلق القوي وبالعلم فتحول شاعراً اجتماعياً.

كما كان شاعراً سياسياً فهو يثير الشعب ويحثه إلى النهوض واشتهر قصائده في حادثة دانشواي سنة 1906، وشارك في الثورة المصرية التي قامت في سنة 1919 بقيادة سعد زغلول.[4]

وفاته

توفي حافظ إبراهيم سنة 1932م في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس، ودفن في مقابر السيدة نفيسة رضي الله عنها.

المبحث الثاني: قضية الوحدة الوطنية والتسامح الديني

كانت الوحدة الوطنية وما زالت أهم القضايا وأشدها حرجا في حياة المصريين. والاختلاف بين العقائد في أي مجتمع، بابٌ يمكن لقوى الشر أن تدلف منه، إذا لم يحكم غلقه، ومن يوم لآخر يتجدد الصراع في مجتمعات عديدة بسبب ما بين أبنائها من اختلاف في الأجناس والعقائد والألوان والتوجّهات، ولا سبيل لقتل هذه العصبيات الضاربة بجذورها في أعماق النفس البشرية، وإن كان من الممكن ضبطها وكبح جماحها، إن الخصومة تقع بين رجلين تجمعهما عقيدة واحدة وعرق واحد، تكون أشد أثرا لو وقعت بين مختلفين، لميل بعض النفوس بسبب هذا الاختلاف، إلى قبول كل تأويل ينمّي فيها الإحساس بالهضم، هذا قدر المجتمع المصري وغيره من المجتمعات التي تلتقي فيها أصول متباينة وعقائد مختلفة.

وقوى الشر التي تتربص بهذه المجتمعات، تتحين الفرص المناسبة لتنفخ فيما يطفو على السطح من خلاف فتضخمه، وتسكب عليه وقودا من شرورها، فإذا استبطأت الفرصة، هيأت التربة، وألقت بذرة الشقاق ووقفت ترقب نموها وتساعد علهي، وهكذا كانت سياسة الإنجليز في مصر، يؤججون نار الخلاف، ويختلفون الأزمات بين طوائف الأمة.

ولأدباء ما الدين إلا تراثُ الناس بينهمُ كلُّ امرئ لأبيهِ تابعٌ تالِ[5]

مصر وأصحاب الكلمة المسموعة فيها، مواقف مشرفة في كل ما تعرضت له من عوادي الفرقة بين المسلمين والأقباط، فنراهم يحدثون الناس عن سماحة الأديان، ويذكرّونهم بتاريخ مصر الحافل بتآلف الصليب والهلال، وقد تفنن الشعراء في رأب الصدع ولم الشمل، حتى بلغ الأمر إلى حدّ قول أمير الشعراء أحمد شوقي، رغبة منه في إخماد نار العصبية.

ومتى صارت حقيقة التديّن عند الإنسان كحقيقة الإرث، لا اختيار للمرء فيما يدين به أو يرثه، فإنه لا يحق للناس أن يجعلوا الدين سببا في تخاصمهم وتمزيق شملهم وبتعبير آخر يرى الشاعر أن الدين مثل القدر الذي يصيب الإنسان، فهو لا يختار دينه كما لا يختار قدره، مثل هذا الرأي الحاد في الدين، كان سيلقى رفضا لو ظهر فيه غير ظروف الفتنة الطائفية، التي تبرره وتدفع إليه، فالغاية ـ كما يرى بعضهم ـ تبرر الوسيلة.

وفي غمرة الفتنة الطائفية أيضا راح شعراء كثيرون يدعون الطرفين، مسلمين وأقباط إلى استبدال وحدة الوطن التي تجمع شملهم بثنائية الدين التي تُفسد ألفتهم.

فلتكن الأرض التي يعيشون عليها دينا لهم جميعا يغارون عليه ويذودون عنه. أما عقائدهم السماوية فمردها إلى الله، الذي لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على دين واحد.

ويسجل يا بني مصر، لم أقل أمة القبـ ـط، فهذا تشبّثٌ بمحال
تاريخ واحتيالٌ على خيال من المجـ ـد ودعوى من العِراض الطوالِ(6)

الأدب المصري الحديث لشوقي، دعوته المبكرة للوحدة الوطنية التي تقي مصر عادية الفرقة وسعايات المغرضين، فقد وقف في عام 1906 منكرا دعاوى التجزئة التي توهن عزم الأمة:

وراح يذكر المصريين بما كانوا يتقاسمونه عبر الأجيال من لقمة العيش، وقليل النعيم وكثير البؤس، لا تختص فئة من ذلك بشيء دون الأخرى، ثم يردّهم إلى أبوّتهم الأولى، والأصلِ الذي لا اختلاف فيه، إلى (النيل) الذي سبق (آدم) وجميع الأديان:

إنما نحن مسلمين وقبطا أمةٌ وُحّدت على الأجيال

سبق النيل بالأبوّة فينا فهو أصلٌ وآدم الجدُّ تالِ[7]

وتتابع الشعراء يدعون لهذا الأمر، وكان لحافظ إسهام بارز، وكيف لا يكون له هذا الإسهام وقد كان على مودة مع كثير من الأقباط، أدباء ومفكرين وساسة، تجمعه بهم المحافل وليالي السمر، فيطارحهم الفكر والشعر والنادرة، وإذا غاب عنهم افتقدوه وتسمعوا أخباره [8] . وكان يفهم أن اختلاف الدين لا يجب أن يكون سببا في تكدير الحياة بالتحزّب وإثارة الفتن، وأنه لا يتورط في ذلك إلا غافل لا يعقل أمر دينه، لهذا كان شعره يعبر عن عجبه ودهشته قبل حسرته، لما يترامى إلى أذنيه من أنباء الفرقة بين شطري المجتمع، بل لكل نظرةٍ متطرفة قد تؤدي إلى هذه الفرقة. يمثل هذا الفهم الراقي والإحساس الصادق، وجدناه يستحث الخديوي عباس الثاني في الأبيات التالية على سرعة المبادرة لسد خلل ظهر في تآلف عنصري الأمة.

مولاي أُمتك الوديعة أصبحتْ وعُرى المودة بينها تتفصّمُ

نادى بها القبطيُّ ملْ لهاتهِ أنْ لا سلامَ وضاق فيها المسلمُ

وهمٌ أغار على النهى وأضلها فجرى الغبيُّ وأقصر المتعلمُ

فهموا من الأديان مالا يرتضي دينٌ، ولا يرضى به من يفهمٌ [9]

ويقول حافظ لأبناء لبنان:

يا قومَ إنجيل عيسى وأمةَ القرآنِ

لا تقتلوا الدهر حقداً فالملك للدّيانِ[10]

وبمثل هذه الروح المتسامحة التي تتجاوز حدود الدين، راح حافظ يرثي صديقه الدكتور شبلي شميل وينوّه بأخلاقه الفاضلة، ثم يرد على أناس توقع استنكارهم ذلك منه، لما كان المرثي يبديه من آراء تمس العقيدة الإسلامية.

قيل : ترثي ذاك الذي ينكر النو ر ولا يهتدي بهدي الكتابِ؟

قلت: كفّوا فإنما قمت أرثي منه خلّا أمسى طويلَ الغيابِ

أنا أرثي شمائلا منه عندي كن أحلى من الشهاد المذاب

كان حرّ الآراء لا يعرف الختـ ـل ولا يستبيحُ غيب الصحابِ

مُفضلا محسنا على العسر واليسـ ـر جميع الفؤاد، رحب الجنابِ[11]

فعبر حافظ في رده عن عاطفة رحبة، اتسعت لتضم ذوي الخصال النبيلة على أي عقيدة كانوا، مستبدلة بالمعايير والقيم التي تفرق، معايير وقيما إنسانية وأخلاقية يمكن أن توجد بين بني الإنسان في كل صقع وزمان، يرى حافظ إبراهيم أن هذه القيم الجديدة التي تطرح من بينها العصبية الدينية والعرقية، يمكن أن توحّد المستضعفين في أمم الشرق أدناها وأقصاها، لدرء خطر الغرب الطامع في ثرواتهم، المتحكم في حريتهم.

متى أرى الشرق أدناه وأبعدهُ عن مطمع الغرب فيه غير وسنانِ

تجري المودة في أعراقهِ طُلقا كجرية الماء في أثناء أفنانِ

لا فرق ما بين بوذيّ يعيش بهِ و مسلمٍ ويهوديٍّ ونصرانِ[12]

لهذا كان حافظ في شعره كثير الثناء على انتصارات اليابان في الحرب والعلم، يعتد بانتصارها وليست على مثل ديننا، ويعدّه نصرا لأمم الشرق المغلوبة على أمرها. فإذا كان هذا القول يمثل رؤية حافظ وتسامحه، وحرصه على تحقيق وحدة كبرى تشد عزم الشعوب في مواجهة القهر، فإن حرصه على تحقيق الأُلفة بين أبناء وطنه أشد، وقد سعى كثيراً في سبيل تحقيقها يعضده رفقاؤه من كتاب وشعراء.

المبحث الثالث: قضية تطوير التعليم

ظل الأزهر قرونا طويلة منارة العلم الوحيدة التي تشع نورها في أنحاء مصر، ويؤمه من حين لآخر طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، وكانت الكتاتيب الكثيرة المنبثة في أنحاء البلاد، هي الروافد التي تصب في صحنه الواسع، ما يتجمع بها من ناشئة مصر الراغبين في استكمال تعليمهم الديني. فلما احتك المصريون بالغرب مرتين في الحملة الفرنسية تارة وفي الاحتلال الإنجليزي تارة أخرى، أيقنوا ألا سبيل إلى ترقية أحوال البلاد، بغير إدخال تلك العلوم الحديثة التي كانت وراء ما شاهدوه من مظاهر المدنية الغربية، لهذا بادر محمد علي بإرسال البعثات العلمية إلى فرنسا، وأنشأ وبعض أبنائه عدداً من المدارس، التي تركز جهودها في تقديم معاف العصر التي طالعوا آثارها في بلدان أوروبا. ولكن هذه المدارس كانت من القلة بما لا يفي بحاجة البلاد، فسعى المخلصون إلى التوسع في إنشائها، ثم تطلعوا إلى إنشاء جامعة تضم عددا من الكليات المتخصصة في مجالات الحياة المختلفة، للارتقاء بالناس ثقافيا وصحيا واقتصاديا، لم يَرق هذا السعي للإنجليز، الذين حرصوا على إبقاء الناس فيما هم فيه من جهل بسبل الحياة الراقية، لئلا يكون شيوع التعليم بينهم وارتقاؤهم سببا في دفع تيار التحرر إلى غاية لا تمكنهم من مقاومته، لهذا راحوا يقاومون بشدة فكرة إنشاء هذه الجامعة، بدعوى أن عقول المصريين غير مهيئة لاستيعاب علوم العصر، وبدلا من الجامعة حثوا على نشر المزيد من الكتاتيب في مدن وقرى مصر.

وقد فطن مفكّروا مصر وأصحاب القلم فيها لما يرمي إليه المحتل، فأصروا على تحقيق مطلبهم، وحشدوا الطاقات وحفزوا همم الأثرياء للعطاء، وعدّوا مساهمتهم في تأسيس هذه الجامعة، جهادا وطنيا، بل واجبا دينيا لا ينبغي التقصير فيه. وتدافع المصريون بالمناكب، كلّ يمد يده بما يقدر عليه، فجاد بعضهم بالأرض، وجاد آخرون بالمال.

وفي المحافل العديدة التي أقيمت لتأييد هذا المشروع، انبرى الشعراء يحذرون من محاولات الإنجليز لصرف الهمم عن هذا الأمر، ومن دعواتهم إلى نشر الكتاتيب في كل مكان بدلا من الجامعة، وكان حافظ في طليعة هؤلاء الشعراء، وأعلاهم صوتا في التحذير.

ذرّ الكتاتيب منشيها بلا عددٍ ذرّ الرمادِ بعين الحاذق الأرِبِ

فأنشأوا ألف كُتّاب وقد علموا ان المصابيح لا تغني عن الشهبِ[13]

وراح يبين عجز هذه الكتاتيب عن الارتقاء بأحوال الناس، لأنها كما وصفها في " ليالي سطيح" تقدم تعليما ناقصا، لا يتضمن مهارة تفيد منها الأمة.

هَبوا الأَجيرَ أَوِ الحَرّاثَ قَد بَلَغا حَدَّ القِراءَةِ في صُحفٍ وَفي كُتُبِ

مَنِ المداوي إِذا ما عِلَّةٌ عَرَضَت؟ مَنِ المدافِعُ عَن عِرضٍ وَعَن نَشَبِ؟

وَمَن يَروضُ مِياهَ النيلِ إِن جَمَحَت وَأَنذَرَت مِصرَ بِالوَيلاتِ وَالحَرَبِ؟

وَمَن يُوَكَّلُ بِالقِسطاسِ بَينَكُمُ حَتّى يُرى الحَقُّ ذا حَولٍ وَذا غَلَبِ؟

وَمَن يَبُزُّ أَديمَ الأَرضِ ما رَكَزَت فيها الطَبيعَةُ مِن بِدعٍ وَمِن عَجَبِ؟[14]

فالكتاتيب لا يتخرج فيها الطبيب، ولا الضباط، ولا المهندس، ولا رجل القانون، ولا الخبير بما هو مركوز في باطن من كنوز. وفي ختام قصيدته الطويلة الملأى بالحث والتحذير والتأميل، يعلن مساهمته في هذا العمل الجليل، داعيا الحضور إلى الاقتداء به:

هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا بالمال إنا اكتتبنا فيه بالأدبِ[15]

ولم يمر عام على دعوته هذه، حتى وقف في حفل آخر نُظم لهذا الغرض، يحي الناس ويجدد عزمهم لهذه الجامعة، ويصرفهم عن دعاوي كرومر الباطلة، التي اتهم فيها عقول المصريين وقدرتهم[16] :

ضَعُوا القُلُوبَ أَساساً لا أقولُ لكمْ ضَعُوا النُّضارَ فإنّي أَصْغِرُ الذَّهَبا

وابْنُوا بأَكْبَادِكُمْ سُوراً لها وَدَعُوا قيلَ العَدُوِّ فإنِّي أَعْرِفُ السَّبَبَا

لا تَقْنَطُوا إنْ قَرَأْتُمْ ما يُزَوِّقُه ذاكَ العَمِيدُ ويَرْمِيكُمْ به غَضَبا[17]

ولا يكتفي حافظ في تحفيز همم الحضور بالحض والوعظ، وإنما راح يستثير وطنيتهم من خلال تقديم القدوة الحسنة والمثل الأعلى. ومَن تُرى يكون القدوة ويكون المثل؟ غاص الشاعر في التاريخ ثم وقع على موقف نساء قرطاجنة الشهير في حربها مع الرومان، فكان خير قدوة وأفضل مثل، يحض به المصريين على الجهاد، ذلك أن أسطول قرطاجنة تعطّل في تلك الحروب لعدم وجود الحبال اللازمة لتسيير السفن، فما كان من النساء إلا أن جززن شعورهن الطويلة، واتخذن منها أمراسا دفعت بالسفن الرواكد لملاقاة العدو حتى تحقق النصر:

هَل جاءَكُم نَبَأُ القَومِ الأُلى دَرَجوا وَخَلَّفوا لِلوَرى مِن ذِكرِهِم عَجَبا

عَزَّت بِقُرطاجَةَ الأَمراسُ فَارتُهِنَت فيها السَفينُ وَأَمسى حَبلُها اِضطِرَبا

وَالحَربُ في لَهَبٍ وَالقَومُ في حَرَبٍ قَد مَدَّ نَقعُ المَنايا فَوقَهُم طُنُبا

وَدّوا بِها وَجَواريهِم مُعَطَّلَةٌ لَو أَنَّ أَهدابَهُم كانَت لَها سَبَبا

هُنالِكَ الغيدُ جادَت بِالَّذي بَخِلَت بِهِ دَلالاً فَقامَت بِالَّذي وَجَبا

جَزَّت غَدائِرَ شِعرٍ سَرَّحَت سُفُناً وَاِستَنقَذَت وَطَناً وَاِستَرجَعَت نَشَبا

وَزادَها ذاكَ حُسناً وَهيَ عاطِلَةٌ تُزهى عَلى مَن مَشى لِلحَربِ أَو رَكِبا[18]

فإذا كان هذا صنيع النساء، فماذا تنتظر مصر من رجالها وتضحياتهم؟

لم يقصر حافظ دعوته لهذا المشروع على شعره، فنراه في " ليالي سطيح" ينعى على المصريين إرسالهم أبناءهم للتعلم بإحدى كليات بيروت، وعجزهم عن إيجاد مثلها في مصر، يقول:

" أليس من العار أن تكونوا أكثر مالا وأعز نفرا ولا تجدوا في مصر لتعليم أولادكم مستقر، وليست بيروت بأخصب من عروس النيل أرضا ولا بأوسع من ملك مصر طولا وعرضا، أيعجز في مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ويظفر عشر معشارهم في بيروت بنيل تلك الأمنية" [19] .

وأخذ ينحى باللوم على تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده الذين علموا ألا حياة للأمة بغير الجامعة ولم يواصلوا قرع آذان الأغنياء وذوي السلطان لإنفاذها. كما ظل يؤكد أن الكتاتيب لن تغني غناء الجامعة التي تقدّم نوعا راقيا من التعليم المدني اللازم لكل نهضة، وأن الحكمة تقضي بأن يحافظ الشعب على الكتاب، ويسعى لإنفاذ الجامعة.[20]

ويستمر حافظ في تعنيف أهل الرأي في البلاد. ليس لما أحسه من فتور همتهم فحسب، وإنما لاكتفائهم أيضا بنسبة كل أدواء مصر إلى الإنجليز، يقول:

" فمالكم تنحون باللائمة على رجال الاحتلال وأنتم أصل ما أنتم فيه من البلاء ... فما عساهم أن يصنعوا بكم إذا قام لفيف من أغنيائكم وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية، أو ما عساهم أن يصنعوا بكم إذا خصص هؤلاء الأغنياء جوائز للفائزين في العلوم وأرصدوا جعالات لكل بارع في صنوف التأليف أو معرب لتلك التصانيف التي ضافت بها رحاب المغرب وأقفرت منها مكاتب المشرق"[21]

لم تضِع جهود حافظ وغيره من دعاة الإصلاح، إذ تحقق الحلم وتم تأسيس جامعة فؤاد الأول، فاكتحلت برؤيتها عيناه قبل أن يطبقهما في رقدته الطويلة سنة 1932.

المبحث الرابع: قضية تحرير المرأة

منذ إصدار كتاب " تحرير المرأة" لقاسم أمين ويطالب فيه برفع حجاب المرأة، فالمفكرون والأدباء وعلماء الإسلام في جدل شديد حول هذا الموضوع، بين مؤيد ومعارض، كلٌّ يرى رأيه ويقدم حججه، وسرت الدعوة في أقطار

الوطن العربي سريان النار في الهشيم، وكثر حديث الشعراء في هذا الأمر، وعلت أصواتهم بين رافض ومشايع، فماذا كان موقف حافظ إبراهيم.؟

كان حافظ يطالع على صفحات الجرائد، ما يدور من معارك، ويرى ما يتعرض له قاسم أمين من طعن كثير، وما يحظى به من تأييد قليل. وكانت ظروف المجتمع المصري والمجتمعات العربية، لا تساعد آنذاك على أن يجهر واحد بمثل هذه الدعوة التي تصادم في وجوه منها أحكام الدين، وتأباها الأعراف والتقاليد وحميّة الرجل العربي وغيرته، وحافظ ـ كما ذكرنا من قبل ـ قد راضته ظروف حياته على أن يُطامن إذا لزم الأمر، أو يهادن ويداور بُغية أن يعيش هادئ النفس، ولأنه يعلم أن التوسط في هذه القضية الهامة قد يُجنبه سخط الرافضين، وجدناه لا يميل ميلا حاداً إلى أحد الطرفين ولا ينصر فئة على أخرى، وإذا صدر عنه رأي فهمه الناس على أنه ترجيح لإحدى الكفتين، سرعان ما يستعيد التوازن برأي آخر، يعمي على الأول، فيلتبس الأمر على الجانبين، ولا يدريان، مؤيد هو أو معارض؟ ونحاول فيما يلي استخلاص رأي واضح محدد له، وهو يقف في هذا المنعطف الاجتماعي الهام، الذي أدى إلى تغيير كثير من الأعراف والأنماط السلوكية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.

يرثي الشاعر قاسم أمين فيقول له:

إن ريتَ رأيا في الحجاب ولم تُعصم، فتلك مراتبُ الرُّسلِ
الحكمُ للأيامِ مرجعهُ فيما رأيت، فنم ولا تسلِ
وكذا طُهاة الرأي تتركه للدهر، يُنضجهُ على مهلِ
فإذا أصبتَ فأنت خير فتًى وضع الدواء مواضعٌ العِللِ
أو لا، فحسبك ما شرفتَ بهِ وتركتَ في دنياك من عملِ

ونلاحظ من حديثه أنه لم يزد على أن وصف صاحب الدعوة بأنه غير معصوم من الزلل، ووصف الدعوة بأنها تحتمل الصحة كما تحتمل الخطأ، والأيام وحدها كفيلة بأن تثبت للناس إن كان صاحبها على صواب أو خطأ، وبهذا جنّب الشاعر نفسه الحكم عليها، واتخاذ موقف محدد منها.

لكن الشاعر بعد هذا القول بعامين، يجهر بتأييد بعض ما دعا إليه قاسم أمين من أمور لا تثير حفيظة المحافظين، مثل تعليم المرأة والاهتمام بتثقيفها، لتنتفع بذلك في رعاية بيتها وأولادها، بينما رفض السماح لها بأن تخوض سافرة معترك الحياة تزاحم الرجال وتفعل فعلهم، متحررة من كل قيد ورقيب.

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهّده الحيا بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الآفاق(22)

ولعل حافظ ـ وقد كان يلقي هذه القصيدة في حفل لصالح تعليم البنات ـ لعله خشي أن يفهم أنصار المرأة، وبخاصة النساء، أنه يرى ألا تبرح المرأة بيتها وأن تظل رهينة فيه، بدعوى القيام على شئونه، فوجدناه حريصا على أن يوضح مقصده:

كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهرا خوف الضياع تصان في الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثا يقتني في الدور بين مخادع وطباق
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التقييد والإطلاق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الأسواق
وعليكم أن تستبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباق(23)

كان حافظ وشوقي أقل جرأة في مناصرة الدعوة من شعراء آخرين مثل الرصافي والزهاوي فقد ناصرا قاسم أمين بمواقف صريحة لا لبس فيها، عرضتهما لانتقادات حادة، وبخاصة الزهاوي الذي مضى في مناصرة هذه الدعوة شوطاً بعيدا وصرح بآراء جريئة.

وجد حافظ أن الطريق الآمن في هذه القضية، أن يدعو إلى تعليمها وأن يشيد بجهودها في مجالات خاصة من النشاط الاجتماعي هي: رعاية الأطفال وكفالة الأيتام، والتمريض، حتى أنها لتقدّم للرجل في هذه الميادين القدوة الصالحة والنموذج الأمثل. وفضلا عن ذلك راح يصف تأثيرها القوي في نفس الرجل، وما تمدّه به من طاقة روحية تدفعه إلى الأمام، وتحسّن طباعه وأخلاقه، ولم يكن الشاعر مبالغا في وصف هذا التأثير حين قال:

أي ذوات الحجال، عشتن للبر و دُمتن قدوة للرجال
لم يكونوا ليدركوا المجد لولا كُنّ أو يسلكوا سبيل المعالي
بسمة تجعل الجبان شجاعاً وتعيد البخيل أكرمَ نالِ[24]

ولم يكتف الشاعر بالحديث عن تفوق المرأة في ميدان الخدمة الاجتماعية وعن قوة تأثيرها في نفس الرجل، فأخذ يصف شجاعتها في الذود عن قضايا وطنها واستعدادها للتضحية في مواطن الفداء، ويسعفه الواقع المصري بالمثال الحي، كما أسعفه التاريخ القديم من قبل بموقف نساء (قرطاجنة)، فيصف كيف تصدت (صفية زغلول) بحشد كبير من النساء لجنود الاحتلال، فتحركت نخوة الرجال وتفجّر بركان الغضب يرمي الإنجليز بجممه حيث كانوا على أرض مصر:

صنعتُنّ ما يُعي الرجال صنيعُهُ فزدتُنّ في الخيرات والبركاتِ
وفي السنة السوداء كنتن قدوةً لنا حين سال الموت بالمهجاتِ
وقفتن في وجه الخميس مدججاً وكنتن بالإيمان معتصمات

وماها لكن الرمح والسيف مصلتا ولا المدفع الرشاش في الطرقاتِ

تعلم منكن الرجال فأصبحوا على غمرات الموت أهل ثباتِ

(صفيّة) قادتكن للمجد والعلا كما كان (سعدٌ) قائد السروات[25]

ويؤكد حافظ في القصيدة نفسها صحة قولهم: " وراء كل عظيم امرأة" بما يصف من مؤازرة (صفية زغلول) زوجها في نضاله، ووقوفها إلى جانبه تهوّن عليه كل صعب من أمر الجهاد:

عرفنا لها في مجد (سعدٍ) نصيبها من الحزم والإقدام في الأزماتِ

تهوّن للشيخ الجليل هجومهُ على الهول بالتشجيع والبسمات

وتدفعه للموت والثغرُ باسمٌ وفي صدرها نوءٌ من الزفراتِ[26]

وكأن الشاعر أراد أن يقول للذين يعارضون تحرير المرأة، إن امرأة مثل السيدة (صفية) تملك من علوّ الهمة وقوة الإرادة ما لا يمتلكه كثير من الرجال، لا ينبغي للرجال أن يحدّ من حريتها ونشاطها، فيحرم المجتمع ثمرة جهودها وخدماتها.

وحافظ إبراهيم الذي لم يصرح بتأييده دعوة قاسم أمين فيما ألقى على مسامع الناس من شعر، كان في ليالي سطيح أعلى صوتا في تأييد هذه الدعوة، لكنه يسلك كعادته دروبا ملتوية كلما همّ براي يعرّضه للمتاعب. فنراه يجري آراءه مرة على لسان (سطيح)، ومرة على لسان (قاسم أمين)، أما هو فمجرد ناقل لما يسمع من حديث الرجلين، يقول على لسان سطيح لقاسم أمين، يعزيه على ما يلقي من عنت بسبب دعوته:

" صاحب مذهب جديد ورأي سديد، دعا القوم إلى رفع الحجاب، وطالبهم بالبحث في الأسباب. فألقوا معه نقاب الحياء وتنقّبوا من دونه بالبذاء، أي فلان إذا مضت على كتابك خمسون حِجة وظهر لذي العينين إدلاؤك بالحجة، تكفل مستقبل الزمان بإقامة الدليل والبرهان، فلعل الذي سخّر لجماعة الرقيق والخصيان من أنقذهم من يد الذل والهوان، يسخر لتلك السجينة الشرقية والأسيرة المصرية من يصدع قيد أسرها ويعمل على إصلاح أمرها.

أوصى نبينا بالضعيفين: الرقيق والمرأة، فخالفنا وصيته ولم نتبع سنته ... فقيض الله للأولى من أعدائنا من دعا إلى عتقه، ... وتالله ليأتين يوم تقوم فيه النساء الغربيات تطالب برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات.

وهناك يعرفون قدر كتابتك، ويقدرون مقدار خطئهم من مقدار صوابك. فانتظر وإن طال الأمر، ولا تبخ نفسك أسفا على أثر القوم، فإنهم أقل العالمين شكرانا وأكثر خلق الله كفراناً"[27]

واستمر حافظ ، يصف على لسان " سطيح" ، استهانة المصريين بقدر المرأة وتحقيرهم شأنها مهما أتت من جلائل الأعمال، ثم انتقل إلى " قاسم أمين" فتمثله أمامه يرد على خصومه الذين ادّعوا أن سفور المرأة سيؤدي إلى شيوع الفواحش، ففنّد دعواهم، وقدّم الدليل على أن فجور المرأة محجبة أيسر عليها منه وهي حرّة سافرة.[28] وهكذا يتكشف لنا من نثر حافظ موقف محدد من الدعوة، وإن احتاط وتخفي مرة خلف (سطيح) وأخرى خلف (قاسم أمين)، تهربا من المواجهة الصريحة التي كان دائما يخشاها ويحسب حسابها في كل أمور حياته.

الحواشي

(1) حياة حافظ إبراهيم الثائر، أحمد محفوظ ، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة، مصر، بدون تاريخ، ص/3.

(2) نفس المرجع

(3) نفس المرجع، ص/23-24.

(4) حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره، للدكتور السعيد محمود عبدالله، مركز الدلتا، الإسكندرية مصر، ص/ 40

(5) الشوقيات، أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1988، ج/3، ص/125.

(6) نفس المصدر، ج/1، ص/189.

(7) http://www.aldiwan.net/poem7128.html.

(8) جمال الدين الرمادي ، من أعلام الأدب المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص/218.

(9) ديوان حافظ إبراهيم، شرح وتحقيق أحمد أمين، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1937، ج/1، ص/291.

(10) ديوان حافظ إبراهيم، ج/1، ص/73.

(11) نفس المصدر، ج/1، ص/182.

(12) نفس المصدر ، ج/1، ص/139.

(13) نفس المصدر ، ج/1، ص/265.

(14) نفس المصدر ، ج/1، ص/272.

(15) ليالي سطيح، حافظ إبراهيم، مطبعة محمد مطر، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص/19.

(16) نفس المصدر ، ج/2، ص/158.

(17) نفس المصدر

(18) نفس المصدر ، ج/1، ص/282

(19) نفس المصدر

(20) ليالي سطيح، ص/124

(21) نفس المرجع، ص/116-117

(22) ديوان حافظ، ج/1، ص/282

(23) نفس المصدر، ج/1، ص/282

(24) نفس المصدر ، ج/1، ص/131

(25) نفس المصدر.

(26) المصدر السابق، ج/1، ص/131.

(27) ليالي سطيح، ص/10.
(28) نفس المرجع، ص/8.

1. حافظ إبراهيم الشاعر السياسي، روفائيل مسيحة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1947.
2. حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره، للدكتور السعيد محمود عبد الله، مركز الدلتا، الإسكندرية مصر.
3. حافظ إبراهيم، دكتور عبدالحميد الجندي، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة، 1980
4. حافظ وشوقي، دكتور طه حسين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1960.
5. حياة حافظ إبراهيم الثائر، أحمد محفوظ، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، بدون تاريخ.
6. ديوان حافظ إبراهيم، شرح وتحقيق أحمد أمين، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1937.
7. شعر حافظ، إبراهيم عبد القادر المازني، مطبعة البوسفور، القاهرة، 1915.
8. الشوقيات، أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1988.
9. ليالي سطيح، حافظ إبراهيم، كلمات عربية للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.
10. من أعلام الأدب المعاصر، جمال الدين الرمادي، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ
11. http://www.aldiwan.net/poem7128.html .